القـــاضى التنوخى

للأستاذ يوسف يعقوب مسكونى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضي)

وأما أسباب عزله فتلخص بما يأتى : قال الرئيس أبو الحسن هلال : وفى شهر ربيع الأول سخط عضد الدولة على القاضى أبى على المحسن بن على التنوخى وألزم منزله وصُرف عما كان يتقلده . وكان السبب فى ذلك ما حدثنى به أبو القاسم على بن المحسن التنوخى قال حدثنى أبو على والدى قال : كنت بهمذان مع الملك عضد الدولة فاتفق أن مضيت يوماً إلى أبى بكر بن شاهويه رسول القرامطة والمتوسط بين عضد الدولة وبينهم ، وكان له صديقاً ومعى أبو على الهائم وجلسنا نتحدث ، وقعد أبو على على باب خركاه[1] كنا فيه وقدم إليه ما يأكله ، فقال لى : اجعل أيها القاضى فى نفسك المقام فى هذه الشتوة فى هذا البلد . فقلت لِمَ ؟ فقال إن الملك مدبّر القبض على الصاحب أبى القاسم بن عبّاد ، وكان قد ورد إلي حضرته بهمذان ؛ وإذا كان كذلك تشاغل بما تتطاول معه الأيام . وانصرفت من عنده ؛ فقال أبو على الهائم قد سمعت ما كتما فيه وهذا أمر ينبغى أن تطويه ولا تخرج به إلى أحد ولا سيما إلى أبى الفضل بن الشيرازى . فقلت أفعل ، ونزلت إلى خيمتى ، وجاءنى من كانت له عادة جارية بملازمتى ومواصلتى وموا كلتى ومشاربتى وفيهم أبو الفضل بن أحمد الشيرازى ، فقال لى : أيها القاضى أنت مشغول القلب فما الذى حدث ؟ فاسترسلت على أنس كان بيننا وقلت أما علمت أن الملك مقيم وقد عمل على كذا فى أمر الصاحب وهذا دليل على تطاول السنة . فلم يتمالك أن انصرف واستدعى ركابيا من ركابتى وقال له : أين كنتم اليوم ؟ فقال عند أبى بكر بن شاهويه . قال : وما صنعتم ؟ قال : لا أدرى إلا أن القاضى أطال عنده الجلوس وانصرف إلى خيمته عنه ولم يمض إلى غيره . فكتب إلى عضد الدولة رقعة يقول فيها : كنت عند القاضى أبى على التنوخى فقال كذا وكذا وذكر أنه قد عرفه من حيث لا يشك فيه وعرّفت أنه كان عند أبى بكر ابن شاهويه وربما كان لهذا الحديث أصل ؛ وإذا شاع الخبر به وأظهر السر فيه فسد ما دُبّرَ فى معناه . فلما وقف عضد الدولة على الرقعة وجم وجوماً شديداً وقام من بساطه كان قد عمله فى ذلك اليوم على منابت الزعفران للديلم مغيظا ، واستدعانى وقال لى : بلغنى أنك قلت كذا وكذا حاكياً عن أبى بكر بن شاهويه فما الذى جرى بينكما فى ذلك ؟ فقلت لم أقل من ذلك شيئاً ، فجمع بينى وبين أبى الفضل بن أبى أحمد وواقفنى وأنكرته ، وراجعنى وكذّبته ؛ وأحضر أبو بكر بن شاهويه وسئل عن الحكاية ، فقال : ما أعرفها ، ولا جرى بينى وبين القاضى قول فى معناها . وثقل على أبى بكر هذه المواقفة وقال : ما تعامل الأضياف بهذه المعاملة . وسئل أبو على الهائم عما سمعه فقال : كنت خارج الخركاه ، وكنت مشغولاً بالأكل وما وقفت على ما كانا فيه . فقد وضرب مائتى مقرعة ؛ وأقيم فنفض ثيابه . وخرج أبو عبدالله سعدان — وكان لى محبًّا — فقال لى : الملك يقول لك : ألم تكن صغيراً فكبرناك ، ومتأخراً فقدمناك ، وخاملاً فنبهنا عليك ، ومقترًّا فأحسنا إليك ؟ فما بالك جحدت نعمتنا وسعيت فى الفساد على دولتنا ؟ قلت : أما اصطناع الملك لى فأنا معترف به ، وأما الفساد على دولته فما علمت أننى فعلته ! وجلست مكانى طويلاً ، وعندى أننى مقبوض علىّ ، ثم حملت نفسى على أن أقوم وأسير الأمر ، وقمت وخرجت من الخيمة ، فدعا البوابون دابتى على العادة ، ورجعت إلى خيمتى منكسر النفس منكسف البال ؛ فصار الوقت الذى أدعى فيه للخدمة ، فجاءنى رسول ابن الحلاج على الرسم ، وحضرت المجلس فلم يرفع الملك إلىّ طرفاً ، ولا لوى إلىّ وجهاً ؛ ولم يزل الحال على ذلك خمسة وأربعين يوماً ، ثم استدعانى وهو فى خركاه وبين يديه أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وعلى رأسه أبو الثناء شكر الخادم فقال : ويلك ! أصدقنى عما حكاه أبو الفضل بن أحمد ؛ فقلت كذب منه ؛ ولو ذكرت لمولانا ما يقوله لما أقاله العثرة ؛ فقال : أوَ مِنْ حقوق عليكم أن تسيئوا غيبتى وتتشاغلوا بذكرى ؟ فقلت : أما حقوق النعمة فظاهرة ، وأما حديثك فنحن نتفاوضه دائماً ... ثم قال عضد الدولة : عرّفنا ما قاله أبو الفضل . قلت : هو ما لا ينطق لسانى به ؛ فقال : هاته ... وكان يحب أن تعاد الأحاديث والأقاويل على وجهها من غير كناية عنها ولا احتشام فيها . فقلت : نعم ؛ قال : (وذكر له بعض النقائص فقربها) ... ثم قال : وقد ذكر هذا الأستاذ وأومأت إلى أبى القاسم وأبى الريّان وجماعة الحواشي فقال : ما قال فى

(١) القبة التركية فارسية معربها خركاه

أبي القاسم ؟ قلت : قال : إنه ابتاع من ورثة ابن بقية ناحية الزاوية من رازان[1] بأربعة آلاف درهم بعد أن استأذنك استئذاناً سلك فيه سبيل السخرية والمغالطة ، واستغلها فى سنة واحدة نيفاً على ثلاثين ألف درهم ، وأنه أعطى فلاناً وفلاناً ثمانية آلاف درهم على ظاهر البضاعة والتجارة ، فأعطاه نيفاً وستين ألف درهم . فمات أبو القاسم عند سماعه ذلك ، وأوردت ما أوردته مقابلته — أى معارضته — على ما ذكرنى به . وحضرت آخر النهار المجلس فى ذلك اليوم على رسمى ، فعاود التقريب لى والإقبال علىّ . ثم رحلنا عائدين إلى بغداد ، فرآنى الملك فى الطريق وعلىّ ثياب حسنة وتحتى بغلة بمركب وجناغ[2] جواد ؛ فقال لى : من أين لك هذه البغلة ؟ قلت : حمّلنى عليها الصاحب أبو القاسم بمركبها وجناغها ، وأعطانى عشرين قطعة ثياباً ، وسبعة آلاف درهم ؛ فقال : هـذا قليل لك مما تستحقه عليه . فعلمت أنه انتهى به وبأنى خرجت بذلك الحديث إليه ، وما كنت حدثته به

وذكر غرس النعمة بن هلال قال : حدثنى بعض السادة الأصدقاء ، وأنسيته وأظنه أبا طاهر محمد بن محمد الكرخى قال : كانت بنت عضد الدولة لما زفت إلى الطائع بقيت بحالها لا يقربها خوفاً أن تحمل منه فتستولى الديلم على الخلافة ، وكان الطائع يحبها حبا شديداً زائداً موفياً . . . . . وتقدم عضد الدولة إلى أبى على التنوخى فى أواخر أيامه بأن يمضى إلى الطائع ويطارحه يناظره ... فى المعنى ... بأسباب يتوصل إليها وأقوال يصفها ، ويروّى إلى الغرض فيها ... رتبها عضد الدولة ولقنه إياها وفهمه

قال التنوخى بعد قدومه إلى بغداد مع عضد الدولة فحكى لى أن الطائع لله متجاف عن ابنته المنقولة إليه . . . فثقل ذلك عليه وقال لى : تمضى إلى الخليفة . . . ويعود الأمر إلى ما يستقيم به الحال ويزول معه الانقباض فقد كنت وسيط هذه المصاهرة ، فقلت : السمع والطاعة . وعدت إلى دارى لألبس ثياب دار الخلافة ، فاتفق أن زَلِقَتْ وَوَتِئَتْ رجلى ، فأنفذت إلى الملك أعرفه عذرى فى تأخرى عن أمره فلم يقبله وأنفذ إلىّ مَنْ يستعلم خبرى ، فرأى الرسول لى غلماناً رَوَقَةً وفرشاً جميلاً ، فعاد إليه وقال : هو متمال وليس بعليل . وشاهدته على صورة كذا وكذا والناس ينشونه ويعودونه . فاغتاظ غيظاً مجدداً حرك ما فى نفسه منى أولاً ، فراسلنى بأن الزم بيتك ولا تخرج عنه ، ولا تأذن لأحد فى الدخول عليك ، فيه إلا نفرا من أصدقائى استأذنت فيهم فاستثنى بهم . ومضت الأيام وأنفذ إلى أبو الريان فطالبنى بعشرة آلاف درهم وكنت استلفتها من أقطاعى فأديتها إليه ، واستمر علىّ السخط والصرف عن الأعمال إلى حين وفاة عضد الدولة .

ثم قال غرس النعمة : فقال التنوخي السمع والطاعة ، ومضى إلى بيته ولم يُقدم على الطائع ، وخاف عضد الدولة إن خالف ما رسمه له ، فأظهر مرضاً وعاده أصدقاؤه منه واعتذر به إلى عضد الدولة ، فوقع لعضد الدولة باطن الأمر وأمر بعض الخدم الخواص بالمضى إلى التنوخى لعيادته وتعرف خبره ، وأن يخرج من عنده ويركب إلى أن يخرج من الدرب ، ثم يعود فيدخل عليه هاجماً فإن كان على حاله فى فراشه لم يتغيّر له أمر ، أعطاه مائتى دينار أصحبه إياها لنفسه وأظهر أنه عاد لأجلها لأنه أنسيها معه ؛ وإن وجده قاعداً أو قائماً عن الفراش قال له : الملك يقول لك لا تخرج عن دارك إلينا ولا إلى غيرنا وانصرف . قال الخادم : فدخلت إليه وهو فى فراشه وعليه دثاره وخاطبته عن الملك وأعاد جواباً ضعيفاً لم أكد أفهمه ، وخرجت ثم عدت على ما رسم الملك فهجمت عليه فوجدته قائماً يمشى حول البستان ، فلما رآنى اضطرب وتحيّر فقلت له : الملك يقول لا تبرح دارك إلينا ولا إلى غيرنا ، وخرجت فبقى على ذلك إلى أن مات عضد الدولة[1] »

تقول وذكره من بعد هؤلاء ابن خلكان ؛ ولم يزد على ما ذكره المؤرخون ممن ذكرنا هنا سوى كتاب (المستجاد من فعلات الأجداد) وقد نوهنا به وأشرنا إلى أمره آنفاً فى غير هذا . وقد نقل ابن خلكان عن الثعالبي والخطيب البغدادى

أما شعره فإننا نذكر منه هنا ما ذكره المؤرخون استطراداً فى ترجمته وما اختاروه من شعره لما كان ديوان شعره من الدواوين المفقودة ، لعل فيه شيئاً من الفائدة . ومن السابقين إلى رواية شعره الثعالبي قال : ومما علق بحفظ أبى نصر سهل بن المرزبان وأنشدنيه للقاضى أبى على قوله وهو معنى طريف ما أراه سبق إليه :

خرجنـــا لنستسقى بيمن دعائه
وقد كاد هدب الغيم أن يبلغ الأرضا[2]
فلما ابتدا يدعو تقشعت[3] السما فما تم إلا والغمام قد انفضّا

وأنشدنى غيره له وأنا مرتاب به لفرط جودته وارتفاعه عن طبقته :

(١) رازان الأعلى والأسفل كورتان كانتا بسواد بغداد
(٢) ضرب من آلات السرج

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى . ج ١٧ ص ١٠٦ — ١١٦ ط. دار المأمون (٢) فى وفيات الأعيان لابن خلكان « يلحق » ج ١ ص ٥٦٤ ط . بولاق (٣) فى وفيات الأعيان لابن خلكان « تكشفت » ج ١ ص ٥٦٤ ط . بولاق

أقول لهـا والحي قد فطنوا بنا ... وما لي على أيدي[1] النوى براح
لما ساءني أن وحشتني[2] سيوفهم ... وإبك لي دون الوشاح وشاح

قال الثعالبي ومما أنشده لنفسه في كتاب الفرج بعد الشدة :

لئن أشمت الأعداء[3] صرفي ورحلتي ... فما صرفوا فضلي ولا ارتحل المجد
مقـام وترحال وقبض وبسطة ... كذا عادة الدنيا وأخلاقها النكد[4]

وسنذكر بقية الأبيات من مقدمة ناشر كتاب « الفرج بعد الشدة » . ولقد وجدت قطع لمؤلف الكتاب عينه مدرجة في الفصل الأخير من بحوثه تلائم مقاصد المؤلف لكتاب الفرج بعد الشدة . ومن أولى هذه القطع ما يأتي :

اصبر فليس الزمان مصطبراً ... وكل أحـــداثه فمنقشعه
كم من فقير غناه في شبعٍ ... قد نال خفضاً في عيشه ودعه
ومن جليل جلت مصائبه ... ثم تلافاه بعـد ما وضعه
فعاد بالعز آمناً جـــذلاً ... وعاد أعداؤه له خضعه[5]

والقطعة الثانية :

متى تصـفو لك الدنيا بخير ... إذا لم ترضِ منهـا بالمزاج
ألم تر جوهر الدنيا المصفّى ... ومخرجه من البحر الأجاج
ورب مخيفة فجأت بهـولٍ ... جرت بمسرة لك وابتهاج
ورب ســـلامة بعد امتناع ... ورب مثقف بعد اعوجاج[6]

والقطعة الثالثة ، قال مؤلف الكتاب وفي محنة لحقتني فكشفها الله تعالى فقلت :

هوّن على قلبك الهموم فكم ... قاسيت هماً أدنى إلى الفرح
ما الشر من حيث تتقيه ولا ... كل مخوف يفضي إلى الترح[7]

والقطعة الرابعة :

لئن عداني عنك الدهر يا أملي ... وسل جسمي بالأسقام والعلل
وشت شمـل تصافينا وألفتنا ... والدهر ذو غير والدهر ذو دول
الحمد لله حمد الشاكرين على ... ماشاء من حادث يوهي قوى الأمل
قد اشتكت بصروف الدهر والتحقت
على فيك غواشي الحزن والوجل
واعتضت منك بسقم شأنه خلل ... ومن وصالك بالهجران والملل
وبعد أمني من عذر ومثنية ... عذراً يسرح بالألفاظ والرسل
ومن لقائك لي الطب أرحمهم ... قسطاً وأرفقهم يدني إلى الأجل
فلست آيس من رجع الوصال ولا ... عود العوافي ولا أمن من السبل[1]

والقطعة الخامسة من قصيدة في محنة لحقته :

أما للدهر من حكم رضى ... يدال به الشريف من الدني
ويستعلي الرؤوس من الذنابى ... وينتصف الذكي من الغبي
ومن عاصاه دمع في بلاء ... فليس بكاء عيني بالعصي
وما أبكي لوفر لم يفـــده ... زمان خان عهد فتى وفيّ
ولا آسى على زمن تولى ... بعيش ناضر غـض ندي
وما تلقى الحوادث إن ألمت ... سوى قلب عن الدنيا سخي
وصبر ليس تنزحه الليالي ... كنزح الدلو صافية الركي
وليس بآيس من كان يخشى ... ويرجو الله من صنع قوى[2]

أما القطعة السادسة فقد قال ناشر الكتاب : وله عند صرفه من تقلدة القضاء بالأهواز وقبض ضيعة من ضياعه وحضوره إلى بغداد وقد نقلنا منها آنفاً بيتين مطلعهما : لئن أشمت الأعداء الخ

ومازلت جلداً في المهمات قبلها ... ولاغر وفي الأحيان أن يغلب الجلد
فكم ليث غاب شردته ثعالب ... وكم من حسام فلّه غيلة غمد
وكم جيفة تعلو وترسب درة ... ومنحسة تقوى إذا ضعف السعد
ألم تر أن الغيث يجري على الربا ... فيحظى به إن جاد صيّبه الوهد
وكم فرج والخطب يعتاد نيله ... يجيء على يأس إذا ساعد الجد
لقد أقرض الدهر السرور فإن يكن ... أساء اقتضاء فالقروض لها رد
فكم فرحة تأتي على أثر ترحة ... وكم راحة تطوى إذا اتصل الكد
وكم منحة من محنة تستفيدها ... ومكروه أمر فيه للمرتجى وفد
على أنني أرجو لكشف الذي غدا ... مليكاً له في كل نائبة رفد
فيمنع منا الخطب والخطب صاغر ... وتمس عيون الدهر عنا هي الرمد
ونعتاض باللقيا من البين أعصرا ... مضاعفة تبقى ويستهلك البعد[3]

والقطعة السابعة هي :

قل لمن أودى به الترح ... كل هم بعـــده فرح
غالط الأحـداث مجتهداً ... كل ما قد حلّ منتزح
لا تضق ذرعاً بنـازلة ... وارمها بالصبر تنفسح
وأزح بالراح طارقهـا ... فجلاء القـــربة القدح
ألق بالمزج المريح أذى ... حدها إن شئت تنشرح[4]

هذا ما تمكنت من العثور عليه عند مطالعتي لهذا الكتاب

(١) معجم الأدباء لياقوت « عن » ج ١٧ مادة محسن
(٢) في معجم الأدباء أيضاً « وشحتني » وهو الصواب في مادة محسن
(٣) في معجم الأدباء أيضاً « الحساد » عين المصدر .
(٤) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها
(٥) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ٢١٤ آخر طبعة .
(٦) كذلك ج ٢ ص ٢١٩ (٧) كذلك ج ٢ ص ٢٢٤

(١) كذلك ج ٢ ص ٢٢٩ (٢) كذلك ج ٢ ص ٢٢٩
(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ من آخر طبعة
(٤) كذلك ج ٢ ص ٢٤٣